

أرييك فروم

وعلم النفس الاجتماعي التحليلي

د. عباس سعدي

حتى الآن نعيش في أجواء محاولات الجمع بين الماركسية والتحليل النفسي بعد أن بدأها رايش وفروم وماركوز.

ان القضية الأساسية التي شغلت فروم ووضعته في مواجهة فكرية حادة مع رايش، بصورة خاصة^(١) تمحور حول إمكانية استعمال مفاهيم ومنهجية التحليل النفسي في تحليل الظاهرة الاجتماعية والصلاحية العلمية لهذا الاستعمال.

وأرييك فروم، الحلال النفسي والفيلسوف، ولد وعاش في ألمانيا (التي ترعرع فيها الفكران الماركسي والفرويدى) حتى سنة ١٩٣٤ ، وانتقل بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية (التي يغلب على أجواها العلمية المنحى الأنكلو سكوفى التجربى) ثم عاد وعاش في إيطاليا حتى سنواته الأخيرة.

وحياته العلمية هذه تظهر من خلال أبحاثه: فقد كتب حول «الخوف من الحرية» و «التحليل

بعد غياب أرييك فروم نرى من المفيد ان نعرض باختصار العناصر الأساسية لفكرة والتوجهات العامة لأبحاثه، وذلك بهدف وضع ترائه في إطار الحركة الفكرية العامة التي ساهم في تحديد معالمها.

إن أرييك فروم هو واحد من ركائز الشالوث التحليلي الماركسي الذي خلق حركة بحث علمية وفكرية عامة عملت على إبراز التفاعل والتقطاع بين الفكر والمنهجية الماركسي والفكير والمنهجية التحليلية العيادية. وقد انطلقت هذه الحركة العلمية، بعد عشر سنوات تقريباً من نهاية الحرب العالمية الثانية، من أجواء النقاش الحاد بين ماركوز (Herbert Marcuse) وأرييك فروم (Erich Fromm) حول التحليل النفسي الثقافي، وقد تركز النقاش في الأساس حول ما يمكن قبوله من الفكرين الماركسي والفرويدى وما يمكن تعديله منها^(٢). وكان هذا الحوار قد بدأ مع أبحاث رايش وبخاصة في الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٦ . وما زلنا

وتواجه الزوجات هذه بالواقع الاجتماعي الذي يراقب حركتها ويتبعها تبعاً لبنيته.

وبنية النزوة عند الفرد خاضعة لعاملين: البنية الجماهيرية (La Constitution) التي يتلکها الفرد منذ الولادة؛ والقدر الوجودي (Le Destin de son Existence) الذي ينتهي مع بدايات الطفولة الأولى. وعلى صعيد إثبات النزوة الجنسية، فإنها يمكن أن تنتظر أكثر بكثير من النزوة الجنائية، ونزوة الجنس تختصر للكلت وللتسامي، ويمكنها أن تشبع هومياً (على خلاف نزوة العذاء والاستمرار التي لا يمكن أن تشبع إلا فعلياً). والنزوة الجنسية يمكن أن تظهر - هومياً - على شكل مازوش أو سادي مثلاً.

ثانياً: حول المادية الجدلية والمادية التاريخية:

يرى فروم بأن المجتمع هو عبارة عن أفراد أحياه بعضون لقوانين التحليل النفسي المشار إليها، ويشير في هذا المجال إلى خلافه مع رايش:

فن الخطأ برؤيه (كما ذكر رايش) حصر التحليل النفسي في إطار علم النفس الفردي فقط والتقول بأن التحليل النفسي لا ينطبق على الظواهر الاجتماعية (السياسة والوعي السياسي..).

فعلم النفس الاجتماعي التحليلي هو علم فهم البنية الزوجية لمجتمع ما «بموافقها الليبية اللاحواعية» انطلاقاً من بنيتها الاقتصادية الاجتماعية. ويتم ذلك من خلال دراسة دائرة الأسرة التي يخضع الطفل في إطارها، وبشكل غير مباشر، لضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية لوالديه، عن طريق القيم التربوية للطبقة الاجتماعية التي تتنمي إليها الأسرة.

وهكذا فإن العلاقات بين الأب والأبناء في الأسرة البروليتارية تختلف عنها في إطار أسر الطبقات الأخرى.

ان الأسرة، برأي فروم، هي الجهاز السيكلولوجي للطبقة الاجتماعية التي تتنمي إليها. (ولذلك فإنه يشير

«النفي والدين» و «فن الحب» و «المجتمع المرتهن» و «الأمل والثورة» و «أزمة التحليل النفسي» و «البودية والتحليل النفسي» ... و «نزعة التدمير عند الإنسان».

وفي عمل أبحاثه يُظهر أريك فروم استلاكه الموسعي لموضوعات وميدان الفيزيولوجيا العصبية، والتاريخ والأنثروبولوجيا وعلم نفس الحيوان والتحليل النفسي.

لقد بدأ التفاعل والتقاطع بين الماركسية والتحليل النفسي في ذهن أريك فروم في بدايات الثلاثينيات حيث كتب مقالاً بالغ الأهمية والدلالات في هذا المجال بعنوان «مهمة وطريقة علم النفس الاجتماعي التحليلي»^(٢).

في هذا المقال يطرح فروم مجموعة من السؤالات حول إمكانية قيام علم النفس الاجتماعي التحليلي وحول مهاراته ومنهجيته. وأبحاثه اللاحقة طورت كثيراً في محاولاتي بدأت في المقال المشار إليه وبقيت في الإطار الأول الذي حدده.

إن العناصر الأساسية لتفكير أريك فروم يمكن ان تستنبط من طرقه في رؤية التقاطع والتفاعل بين الماركسية والتحليل النفسي وما يمكن ان ينتج عن ذلك من مناهج وطرق أبحاث في مجالات علم النفس.

فكيف يطرح فروم شخصياً هذه المشكلة؟
أولاً: يشير فروم الى كون التحليل النفسي علمًا مادياً، والحقائق المادية التي توصل إليها هذا العلم تتلخص في الآتي:

الزوارات وال حاجات هي التي تحرك السلوك الانساني، وهي تصدر عن أرضية فيزيولوجية ولكن لا تلاحظ مباشرة؛ والأخلاقيات الاجتماعية توجه النزوة ورغباتها عن طريق العقلنة الاب狄ولوجية، وال حاجات لا تنتصر فقط على العذاء والمحافظة على الوجود والاستمرار (الجوع والعطش...) وإنما تطال النزوة الجنسية التي تبرز من خلال التوترات الجسدية في المناطق الفلبمية للجسد (تلك المناطق التي تحرك اللذة).

والغزو، وإنما هو التعبير عن حاجات نرجسية: أي ان يُعترَف بالفرد لذاته ومن خلال الآخرين.

ثالثاً: كيف تبرز علاقة التحليل النفسي بالمادية التاريخية:

يرى أريك فروم بأن التحليل النفسي يمكن أن يعني المادية التاريخية بمعرفة أوسع بالتكوين الانساني، وبواحد من أهم عناصره (تكوين الجهاز النزوبي) الذي يتدخل بعمق في العملية الاجتماعية. ويرى بأن الجذور الليبية للجهاز النفسي تشكل جزءاً أساسياً من البنية التحتية.

ويشير فروم بالتحديد الى أن التحليل النفسي يمكن أن يفسّر ما لم يفسره ماركس وأجلز عن كيفية الانتقال من الأشياء المادية الى الفكر الانساني عبر «رأس الانسان».

وعلى هذا يرى بأن علم النفس الاجتماعي، استناداً الى التحليل النفسي، يستطيع ان يفسّر إنتاج الايديولوجيات عن طريق تفسير كيفية تحرك وانتقال الواقع الاقتصادي استناداً الى حياة الانسان النزوية.

وتحليل النفسي يستطيع ان يشرح عملية القاسك الاجتماعي: فالقاسك لا يتم فقط من خلال أجهزة القمع (البوليس، الدولة، الجيش)، وإنما يتم أيضاً عن طريق القوى الليبية التي تشكل اللحمة التي تجمع الناس وتدفعهم الى إنتاج الايديولوجيات.

ويستطيع التحليل النفسي أيضاً ان يفسّر عملية خضوع الأكثريّة للأقلية، فيرى في ذلك عملية ثبّت وإعادة (Fixation et Repetition) واستمرارية أيضاً للموقف الذهني الذي كان البالغ يتخذه (عندما كان طفلاً) حيال أهله (ولا سيما حيال الأب في إطار الأسرة البرجوازية). ان في ذلك مزيجاً من الإعجاب والتخوف والابان بالقوة والذكاء والأهداف الأبوية مما يظهر على شكل تقدير كبير ومضمّن للصفات الفكرية والأخلاقية التي يمتلكها الأب.

هذا الى النسبة الاجتماعية لمركب الأوديب).

ولو طبقنا طريقة علم النفس الفردي التحليلي على الظواهر الاجتماعية، لتوصتنا الى الطريقة، النفس الاجتماعية، التي تعمل على «فهم عمليات التكيف الايجابية والسلبية للجهاز النزوبي مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي». ذلك ان الجهاز النزوبي هو نفسه معطى بيولوجي يتأثر ويتشكل تبعاً للواقع الاقتصادي الاجتماعي السادس (عبر حلقة الأسرة).

ويشير فروم الى بعض التأويلات الخاطئة للنظرية الماركية، فيرى خطأ راسل (Bertrand Russel) الذي يعتقد بأن ماركس قال بوجود دافع «كب المال» كمحرك أساسى للسلوك الانساني⁽⁴⁾.

ويشير كذلك الى خطأ هنري دومان (Man) الذي يقول بأن ماركس يعتقد بوجود غريزة الربح (l'Instinct de Profit) عند الانسان⁽⁵⁾.

ويوري فروم رداً على ذلك كله، مع ماركس، بأن الانسان هو الذي يصنع التاريخ، وبأن الحاجات هي التي تحرك الأعمال والمشاعر الانسانية، وبأن هذه الحاجات تتضاعف وتتغير من خلال تطور المجتمع، وبأن هذا التغير يمثل شروط مضاعفة العمل الاقتصادي.

ويرى كذلك، بحسب مفهومه للمادية الجدلية، ان العامل الاقتصادي لا يلعب دوراً في علم النفس الا حيث تجد الحاجات الإنسانية إشباعها بواسطة انتاج الأشياء والوسائل المادية لهذا الشباع (وهذا ينطبق خصوصاً على حاجة الغذاء والاستقرار). وهكذا، فإن هذه الحاجات تعمل كرافعة لعملية الانتاج. وأما حاجة النزوة الجنسية فإن لها مساراً آخر يدرس التحليل النفسي.

ان التحليل النفسي، كما يرى فروم، هو الذي أعطى علم النفس إمكانية الحديث عن «غريزة الربح»، بحيث أنها تلعب في الاقتصاد النفسي دوراً أساسياً مع غيرها من الحاجات مثل التنازل والصادقة والترجسية؛ وان الربح ليس له أساس الامتلاك

لقد ساعدت مواقف فروم الى حد بعيد على تحديد موضوع ومنهجية علم النفس الاجتماعي العيادي. وهذا ما ظهر من خلال أبحاثه ودراساته من جهة، ثم من خلال أبحاث ودراسات معاذليه من جهة ثانية (ولا سيما رايش الذي دخل معه في نقاش شير أشرنا اليه في هذا المقال). على أتنا نستطيع ان نوجه الى فروم مجموعة من الافتراضات عنوانها انه لم يحدد بوضوح المستوى الذي يدرسه علم النفس الاجتماعي (لأن الظاهرة الاجتماعية لا تدرس الا اجتماعياً والظاهرة النفسية لا تدرس الا نفسانياً، بينما نرى فروم يقول بأن التحليل النفسي يمكن ان يدرس الظاهرة الاجتماعية) ونحن نوافق في ذلك رايش في موقفه التقادم من أريك فروم؛ ونقرّ في الوقت نفسه بأن فروم استطاع بجدارة أن يبرز القدرة الفائقة للجهاز النزوبي على التكيف مع القدر الوجودي للانسان في الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه.

ونظرة نافذة الى الأحداث اللبنانيّة خاصة، والعربيّة عمّة (وذلك الى أقطار العالم الثالث) تؤيد بما لا يقبل التردد بأن ما يجري يصدر عن عمق نزواتنا المكبوتة التي تقضي المناسبة للتعبير الانفعاري واللاعقلاني عن أهدافها ويتم كل ذلك في جوّ اجتماعي مفكك ولاعقلاني - وأكاد أقول «بدائي» - فرضته علينا «حضارة عقلانية» ترسّت بشّى أنواع القمع والاستغلال «للشعوب غير المتحضرة»، حيث تم تحويلنا، عن طريق الفوضى التي نعيشها، الى مجتمع خاضع ولا واع يفتّد بمحابيّة نزووية ما صَسَّ له الوعي الاستثماري «المتحضر».

ان فروم يرى توازياً بين التثبيت على الأب والتشبيت على الطبقة المسيطرة. والعلاقات الليبية مختلف باختلاف الطبقات. فالعلاقات الليبية مع القائد السياسي مختلف عنها مع القائد البروليتاري الذي يتأهي بطبقة ويخدم رغباتها، مع أنه يقودها الى القائد الدكتاتور الذي يقود الجماهير فقط لأنه رجل قوي ومن طبقة مسيطرة.

رابعاً: مهمة وطريقة علم النفس الاجتماعي التحليلي:
يمكن ان تتلخص مع فروم كما يلي:

- إن طريقة التحليل النفسي الفرويدي هي التي يجب ان تُعتمد في علم النفس الاجتماعي التحليلي، وذلك عبر تطبيقها على الطواهر الاجتماعية، مما يؤدي الى فهم المواقف النفسية المشتركة بين الأفراد ودلائلها الاجتماعية.

ويم ذلك انطلاقاً من عمليات التكيف السلبية والإيجابية للجهاز النزوبي مع الشروط الوجودية الاجتماعية والاقتصادية.

- ومهمة علم النفس الاجتماعي التحليلي هي إظهار التوجهات الليبية الأساسية اجتماعياً، وعرض وشرح البنية الليبية للمجتمع، وذلك عبر تفسير هذه البنية وتطور وظيفتها في العملية الاجتماعية، مما يبرز الدور الأساسي لنظرية نشوء الأيديولوجيات تبعاً لتقاطع (Interaction) الجهاز النزوبي مع الشروط والظروف الاقتصادية الاجتماعية.

* * *

هواش

- (1) Louis FRAENKEL, Le Freudo-Marxisme in, Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation- 10/18. Paris- 1974.
- (2) Reich- L'application de la psychanalyse à la recherche historique. in, Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation. 10/18. Paris 1974 P. P
15-39.

- (3) Erich Fromm- Tache et méthode d'une psychologie sociale analytique» in Freud-Marxisme et sociologie de l'aliénation- 10/18- Paris 1974. P. P 41-81
- (4) Bertrand Russel; Warum ist die psycho-analyse popular? article publié en 1927 dans la revue Juive Forward, cité par Kantsky, Der historische Materialismus t. I, P. 340/1.
- (5) Zur psychologie de Sozialismus, 1927 P. 281.